دو فصلنامه مطالعات ادب اسلامی
دوره دوم، شماره اول، پاییز و زمستان ۱۴۰۱

نصف سنوية دراسات الأدب الإسلامي
السنة الثانية، العدد الأول، خريف وشتاء ۲۰۲۲

دراسة الاستلهام الرمزي من سيرة الأنبياء في شعر سميح القاسم

مهرداد آقايي*[۱] (أستاذ مشارک بقسم اللغة العربية وآدابها، جامعة محقق أردبيلي، أردبيل، إيران)
خديجة عرب صالحي[۲] (ماجستيرة في اللغة االعربية وآدابها، جامعة أصفهان؛ إيران)
طاهرة رنجبريان[۳] (ماجستيرة في اللغة االعربية وآدابها، جامعة محقق أردبيلي؛ إيران)

تاريخ دريافت: ۱۴۰۱/۰۴/۰۶ **تاريخ الوصول: ۲۰۲۲/۰۶/۲۷**
تاريخ پذيرش: ۱۴۰۱/۱۲/۲۰ صفحات: ۹۵-۱۱۲ **تاريخ القبـول: ۲۰۲۳/۰۳/۱۱**

الملخّص

يستخدم الشعراء المعاصرون الرمز الأسطوري بصورته الفنية والمعاصرة، فى الأدب المهجري واحتل هذا النوع من الرمز في الأدب العربي الحديث حيّزاً كبيراً وقدّر له أدباء كبار ليرتفعوا بالرمز من مجرد اشارة عابرة غير متلائمة مع النص إلى تجسّد معاناتهم لصهر همهم الذاتي والموضوعي في رموز كانت باستطاعتها إثارة كوامن النفس البشرية، خاصة أنّهم كسروا الحواجز التقليدية التي تعوق انطلاق أدبهم في سماء الخيال. وامتدت آثار هذه الدائرة فى الاتساع لتشمل الكثير من الأدباء، سواء فى الشعر أو النثر أو فى الرواية، مثل احمد زكي أبو شادي، وسعيد عقل، وصلاح لبكي، وسميح القاسم. هذا المقال يشرح الأبيات التي تحمل رمز الأنبياء في أشعار سميح القاسم. إتّخذ سميح القاسم الرموز الدينية ومنها رمز الأنبياء لهمومه وآلام شعبه أمام المحتلين و استخدم شخصية الأنبياء رمزاً للتمرّد على كل ظالم مضطهد، وللتعبير عن تمرّد الانسان الفلسطيني على القوى التي قدرت عليه المحنة ويحضر مفهوم التشرّد من خلال قصة النبي يوسف (عليه السلام) حين أوقعه اخوته فى الجب أو حين ابتلع حوت النبي يونس (عليه السلام) ويرسم تحرير الوطن وانتصار الفلسطينيين بزيارة يعقوب ابنه يوسف بعد تحمل آلام الفراق.

الكلمات الرئيسة: الأدب المهجري، الرمز، شعر المقاومة، سيرة الأنبياء، سميح القاسم.

---

[۱] الكاتب المسؤول؛ البريد الإلكتروني: almehr55@yahoo.com
[۲] البريد الإلكتروني: arabsalehy@yahoo.com
[۳] البريد الإلكتروني: mehre89arabic@yahoo.com

بررسی الهام‌پذیری نمادین از سیره پیامبران در شعر سمیح القاسم

چکیده

شاعران معاصر نماد اسطوره‌ای را به شکل هنری و معاصر آن در ادبیات مهجر بکار می‌گیرند. این نوع از نماد در ادبیات معاصر عرب فضای وسیعی را به خود اختصاص داد. نویسندگان بزرگ چنین فرض کردند که نماد را از یک اشاره زودگذر صرف که با متن ناسازگار است ارتقا دهند تا تلاش آنها را تجسم بخشد و نگرانی‌های ذهنی و عینی آنها را در نمادهایی که قادر به برانگیختن نهفته های روان انسان هستند در هم آمیزد. به خصوص که آنها موانع سنتی را که مانع اوج‌گیری ادبیات آنها در آسمان خیال بود، درهم شکستند. آثار این دایره گسترش یافت و بسیاری از نویسندگان، چه در شعر، چه در نثر و چه در رمان، مانند احمد زکی ابو شادی، سعید عقل، صلاح لبکی و سمیح القاسم را در بر گرفت. این مقاله به شرح زندگی سمیح قاسم پرداخته و ابیاتی از اشعار وی که نماد پیامبران در آن است ذکر شده است. سمیح قاسم برای دغدغه‌های خود و درد مردمش در مقابل اشغالگران، نمادهای مذهبی از جمله نماد پیامبران را برگزید. او از شخصیت پیامبران به عنوان نماد قیام در برابر هر ستمگر بی انصافی و بیان قیام فلسطینی‌ها در برابر نیروهایی که بر او چیره شده بودند استفاده کرد. مفهوم آواره‌گی در داستان حضرت یوسف (علیه السلام) هنگامی که برادرانش او را در چاه انداختند یا حضرت یونس (علیه السلام) هنگامی که توسط نهنگی بلعیده شد وجود دارد. او آزادی وطن و پیروزی فلسطینیان را با دیدار یعقوب و پسرش یوسف، پس از تحمل درد فراق، به تصویر می‌کشد.

کلیدواژه‌ها: ادبیات مهجر، نماد، شعر مقاومت، سیره پیامبران، سمیح قاسم.

۱ – المقدمة

يقدّم هذا البحث محاولة متواضعة لدراسة الاستلهام الرمزي من سيرة الأنبياء في شعر سميح القاسم وهو من الوجوه البارزة في شعر المقاومة ووظّف التراث الديني واستدعى الشخصيّات الدينية خاصّةً شخصيّات الأنبياء من خلال الرمز في أشعاره ويحاول أن يتحدّث عن مأساته وآلام شعبه من خلال النماذج الرمزي للأنبياء.

في هذه الدراسة اجتهدنا في قراءة مجاميع شعرية لسميح القاسم، فوجدنا أنّ أشعاره مليئة بالرمز وانتخبنا الأشعار التي إهتمت باستدعاء شخصية أنبياء أو استلهم فيها الشاعر من شخصيتهم واجتهدنا أن نشرح هذه الاستلهامات الرمزية، وأى نجاح في هذا المجال يساعد بلا شک على فهم شعر الشعراء وتقريبها من القارىء وكان منهج البحث توصيفيٌ تحليليٌ، واعتمدنا فيه على المستندات والوثائق الموجودة فى المكتبات وبدأنا بجمع أى معلومات حول هذا الموضوع ثمّ صنّفناها وحللنا الأشعار وعلّقنا على بعضها واستنتجنا منها.

أمّا المصادر الأساسية في هذه الدراسة فقد كان الأعمال الشعرية لسميح القاسم إضافة إلى كتب أخرى ومعاجم ومصادر استقينا منها المعلومات حول كل يخصّ موضوع «***الاستلهام الرمزي من سيرة الأنبياء في شعر سميح القاسم***» ومواضع الاستلهام هى: نهاية الاحتلال وتحرير الوطن، الثورة والكفاح، المأساة والآلام، التشرّد والنفى، التمرّد وإنطفاء القيم الدينية.

الشعر الفلسطيني المعاصر يحتوي المضامين الإجتماعية ومنها المقاومة والجهاد والدفاع عن الوطن العربي. شعراء المقاومة يستخدمون الرمز في أشعارهم كوسيلة لبيان ما في ضمائرهم من الإضطهاد الفكري والنفسي وما يعانون من الإحتلال. والسؤال الذي يريد هذا البحث الإجابة عنه هو: لماذا يستخدم شعراء المقاومة الأنبياء في استلهامهم الرمزي ولا يستخدمون الأساطير التاريخية؟ ومن أهداف البحث هى: تبيّن هذه المقالة أثر التراث الثقافي والديني في أشعار سميح القاسم. يفيد هذا البحث الدارسين، لمعرفة أبعاد من آثار الدين وتاريخ الأديان فى الأدب المعاصر.

۱–۱. خلفية البحث

هناک دراسات متعددة في شعر سميح القاسم ولكن لم يُكتب أي مقال في هذا الموضوع، وجدنا بعض البحوث المتعلقة بهذا الموضوع و في هذا المجال ومن بينها مقالة «حضور نمادين أنبياء در شعر معاصر عرب» الدكتور عباس عرب ومحمد جواد حصاوي، جامعة مشهد ورسالة «سميح القاسم

دراسة نقدية في قصائده المحذوفة» أطروحة لدرجة الماجستير باشراف الأستاذ الدكتور عادل الأسطة، جامعة النجاح الوطنية. ومنها مقالة «استلهام الحديث النبوي في الشعرالعربي المعاصرو ودراسة معنونة بـ" التراث الدينى في شعر سميح القاسم الشاعر المقاوم الفلسطيني» لمحمد خاقاني ومريم جالئي. و منها أطروحة « سيماى اساطيرى انبيا در ديوان محمود درويش و سميح القاسم » لخديجه عرب صالحى.

٢- البحث

٢-١.الرمز

الرمز فى اللغة هو:«الإشارة بالشفتين أو العينين أو الحاجبين أو اليد أو الفم أو اللسان». (فيروز آبادي، ١٤٠٨ق، ج٢/٢٥٣) ويرى البعض أنّ أصل الرمز هو:«الصوت الخفي الذي لا يكاد يفهم». (ابن جعفر، د.تا:٦١) أيضاً هو:« تصويت الخفي باللسان كالهمس، والرمز إشارة وإيماء بالعينين والحاجبين والشفتين والفم». (ابن منظور، ١٤١٤ق، ج٤/ ٣٦٣) أما الرمز فى الإصطلاح فهو:«شيء ينوب عن الشيء، ولكنّ هذه النيابة ليست بالمشابهة بينهما، بل بالإشارة المبهمة، أو عن طريق علاقة بالصدفة أو بالإتفاق».(پورنامداريان، ١٣٦٤: ٩و١٠)

فقد أرجع البعض نشوء الرمز إلى التأثير من ت.ث. إليوت، مع أنّنا لا ننكر أثره في إسراع عملية استدعاءه فى الشعر الّا أنّه لم يكن العامل الوحيد، بل تكاتفت عدة عوامل أخرى لتهيأ الجو لإقبال الشعراء عليه، منها الأوضاع السياسية وأيضاً المناخ الأدبي السائد والوعى الجماهيري وعوامل أخرى.

ظهرت تباشير استخدام الرمز الأسطوري بصورته الفنية والمعاصرة، فى الأدب المهجري واحتل فيه حيّزاً كبيراً وقدّر له أدباء كبار ليرتفعوا بالرمز من مجرد اشارة عابرة غير متلائمة مع النص إلى تجسّد معاناتهم لصهر همهم الذاتي والموضوعي في رموز كانت باستطاعتها إثارة كوامن النفس البشرية، خاصة أنّهم كسروا الحواجز التقليدية التي تعوق انطلاق أدبهم في سماء الخيال.

وامتدت آثار هذه الدائرة فى الاتساع لتشمل الكثير من الأدباء، سواء فى الشعر أو النثر أو فى الرواية، مثل احمد زكي أبو شادي، وسعيد عقل، وصلاح لبكي، ولكن محاولاتهم ظلت طفيفة ولم تتوفر لها الشروط الفنية اللازمة.

۲-۲.ظهور الرمز فی الأدب الفلسطيني

قد لعب الرمز الأسطوري دوراً كبيراً باعتباره جزءاً من التراث الإنساني والعربي خاصّة وفرض على الشعر العربي نفسه لتوظيفه في إضاءة التجربة المعاصرة وبذلک أضفى على التجربة الحديثة بعداً جديداً خرج بها عن الأنماط والأساليب السائدة من رصف للكلمات ونأى بالشاعر المعاصر عن الغنائية والذاتية ومضغ الصور التقليدية. فقد حشد الشعراء الكثير من الرموز التراثية والدينية في شعرهم واستخدام هذه الرموز: «يحمل إلى الأدب حيوية وإحساساً بالواقع».(الجيوسي، ۲۰۰۷: ۷۹۳)

نزع شعر المقاومة كشعر بقية البلاد العربية إلى الرمز واستخدام الأسطورة بسبب الهجمة الاقتصادية والسياسية والنفسية التي شنّتها السلطات الإسرائيلية على الشعراء والمثقفين، واختار شاعر المقاومة الطريقة الأسطورية والرمزية لإنشاد مقاصده والتعبير عمّا يخالجه.(كنفاني، ۱۹۸۷: ۳۱) وكانت هذه الطريقة مجهولة حتى سنة ۱۹٤۸م في شعر فلسطين وظهرت بسبب الأعمال العنفية من قبل محتلى الصهيوني وأصبحت من النزوع الشعرية وأقبل الشعراء على هذه الطريقة وعبّروا بها عن أفكارهم السياسية والاجتماعية.

فقد أعاد الشاعر الفلسطيني النظر إلى التراث وتمثّل رمزه في شعره، شعوراً منه بالصلة المباشرة معه وإحساساً بجفاف الحياة المعاصرة ونمطيها وتعقيدها ممّا: «دفعه إلى الهرب من هذا الواقع ونشدان عالم آخر أكثر نضارة وأكثر بكارة وكان ينشد هذا العالم بين أحضان التراث».(عشري زايد، ۱۹۸۷: ٥٤) فأعاد النظر إلى ماضيه ليمنحه بعض الدفء ويكسبه الثقة بنفسه وبتاريخه، ولكنّ هذا الارتباط بالشعر القديم والتراث، لا يكون ارتباطاً بطرائق تعبيره، بل بالروح العميق الذي حرّكه.

وجد الشاعر الفلسطيني في تراثه وتراث غيره منهلاً ثرياً غنياً بالأساطير والرموز «لما كان تشويه الثقافة الإسلامية والعربية وإشاعة الجهل بين الناس من الأهداف الرئيسية للكيان الصهيوني فكان طبيعياً أن يردّ الشعراء الفلسطينيون إلى موروثهم الديني بإعتباره من مقوّمات شخصيتهم في مواجهة الكيان الصهيوني الذي يحاول أن يستند في وجوده إلى مبرّرات دينية، وكأن استلهام شعراء فلسطين التّراث الديني ليس إلاّ تحدياً للكيان الصهيوني وادّعائه أحقيته بالوطن استناداً إلى إفتراءات دينية». (رستم پور ،۱۳۸٤: ۱۹)

الرموز الدينية

إنّ التّراث قيمة من قيم الشعوب الروحية واستخدمه الشعراء بأشكاله المتعددة وفي مدىً واسع إلى أن أصبح هو من السّمات البارزة للقصيدة العربية فى العصر الراهن بسبب ضرورات ومؤثرات خاصّة التي واجهها الشاعر العربي ومن المصادر التراثية الموروث الديني إذ ليس هناک عاطفة أقوى من الدين في حياة الناس، لما له علاقة بعواطفهم؛ «فليس غريباً إذن أن يكون الموروث الديني مصدراً أساسياً من المصادر التي عكف عليها شعراؤنا المعاصرون واستمدوا منها شخصيات تراثية، عبروا من خلالها عن جوانب من تجاربهم الخاصة».(عشرى زايد،٢٠٠٦: ٧٦)

إن التّراث الديني جزءٌ لا يتجزأ من الأدب الفلسطيني المعاصر حتى تحوّل استخدامه إلى سمة من سماته الأسلوبية وقد استلهم شعراء الأرض المحتلة تراث أمّتهم في شعرهم، لما يمثّله من منبع يغني نصوصهم، ويؤكّد ارتباطهم بماضي وطنهم ويهدف الشاعر الفلسطيني من استخدام الرموز الدينية إثبات أصالته وأصالة شعبه رغم احتلال أرضه المقدسة من قبل العدو الصهيوني ويستخدم نص الكتب المقدسة الدال على طبيعة المهمة «التي قام بها الأنبياء لتحقيق السعادة البشرية وتبليغ تعاليم رسالاتهم السماوية لبنى البشر، إلاّ أنّه مازال على الأرض من لم يفد شيئاً من تعاليم الأنبياء، ويجحف بحق الإنسانية في فلسطين، ويسفک دماء أبناءها، وهو بذلک يلقى الضوء على سياسة الإحتلال وممارساته بحق الشعب الفلسطيني».(بزراوي،٢٠٠٨: ٢٠٦) والأديب الفلسطيني يخاطب معتنقي الديانات الثلاث لأنه يعتبر وطنه المحتل مهد الأديان السماوية.

نَحْنُ مِنْ أرْضٍ – يُقال
إنَّها مَهْدُ النّبواتِ – يُقال
بَسَطَتْ نُوراً وَعِرْفاناً على الدُّنْيا (القاسم، ١٩٨٧: ٦١٢)

وفي مكان آخر يقول:

أرْضُنا
مِنْ عَسَلٍ . يُحْكى . بها الأنْهارُ . يُحْكى
مِنْ حَليبٍ
أنْجَبَتْ . يُحْكى . كبارَ الأنْبياءِ (نفس المصدر : ٦٤)

شخصيات الأنبياء (عليهم السلام) هى أكثر شخصيات التراث الديني شيوعاً في شعرنا المعاصر، ولا غرو فقد أحس الشعراء من قديم بأنّ ثمة روابط وثيقة تربط بين تجربتهم وتجربة الأنبياء.(عشرى

زايد،٢٠٠٦: ٧٧) وهكذا فانّ شخصيات الأنبياء كموروث ديني استحضره الشاعر في قصائده، قصد ربطه بدلالات أساسية لا تخرج عن نطاق فكرة الصراع والثورة وقصد الكشف عن حقائق ووقائع طالما استترت برداء زائف فرأى الشاعر تعريتها وكشف وجهها الحقيقي بطريقة تلميحية رمزية بعيداً عن المباشرة والتقريرية (عبداللطيف، د.ت:٤). ولذا فقد كانت النبوة مصدر إلهام أفاد منه الشاعر، إذ عمّق رؤيته للحياة بمزجه بين المتباعدات بالزمان والمكان، وقد انطلق من مهمة النبي الذي حمل رسالة سماوية تستهدف إنقاذ البشرية من الجهل والظلام لتصوير واقع فلسطين التي مازالت مروج القمح تروى فيه بالدم.

كم نبيٍ أورثَ النّاسَ نبيّاً
«علّم الانسانَ ما لم يعلم»
ومروج القمح مازالت تُرَوّي بالدم
ويلُ هذا الكونِ
...مازال شقيّا! (القاسم،١٩٦٤: ٢٦)

سميح القاسم

يعتبر سميح القاسم من أبرز شعراء المقاومة الفلسطينية من مواليد عام ١٩٣٩م ومسقط رأسه فى الجليل الأسفل، حيث ينتمي إلى طائفة عربية إسلامية فاطمية درزية،وقد نشأ في عائلة محبّة للعلم والثقافة بمدينة الزرقاء الأردنية ثم انتقل مع والديه إلى الرّامة بعد أن تلقّى التعليم في مدارس الرامة والناصرة، دخل ساحة الحزب الشيوعي الإسرائيلي ولكنّه تركه بعد فترة وتفرّغ لعمله الأدبي. وما إن بلغ الثلاثين حتى كان قد نشرت ست مجموعات شعرية حازت على شهرة واسعة فى العالم العربي. «كتب سميح أيضاً عدداً من الرّوايات، ومِن بين اهتماماته الحالية إنشاء مسرح فلسطيني يحمل رسالة فنيّة وثقافيّة عالية كما يحمل في الوقت نفسه رسالةً سياسيةً قادرةً على التأثير في الرأي العام العالمي فيما يتعلّق بالقضية الفلسطينية» (الجيّوسي، ١٩٩٧: ٣٧٨) و«أسهم في تحرير مجلّة الغد والاتحاد، ثم تولى رئاسة تحرير مجلّة هذا العالم ١٩٦٦م»(شفا عمرو،١٩٨٧: ٣) رأس سميح القاسم اتّحاد الكتّاب العرب في اسرائيل ورئيس لإدارة تحرير صحيفة كلّ العرب، ويمتاز شعره بالالتزام بالإنسانية والوطنية وقد عمد سميح كغيره من شعراء العربية المعروفين إلى الغوص في أعماق الماضي، والنفاذ بوعى تام إلى الوقائع الأسطورية يستجليها، ويكسر الوهم الأسطوري، وينزل به إلى الأرض (المتوكل وآخرون،١٩٩٩:

١٢٧) ويقول هكذا: «أريد أن أحطم الأسطورة وأقول للعالم، ما هو عندكم أسطورة، لدينا هو حقيقة...» (بزراوي،٢٠٠٨: ٢٢٠) وهو يتخذ من الأسطورة أقنعة ورموزاً لهمومه ومشاعره وأحاسيسه في تشكيلاتها وتنوعاتها المختلفة، وقد أشار إلى أنّه استخدم الأسطورة كوسيلة للإفلات من الرقابة الصهيونية.(المصدر نفسه:٢٢٠)

الثورة والكفاح

يكشف لنا شعر سميح القاسم عن ثقافة واضحة في ميدان الكتب الدينية فلقد قرأ الشاعر هذه الكتب واستخرج منها تفسيرات خاصّة، ومواقف محددة ويخدمها لتلك الفكرة التي يعبّر عنها... ويهتم بالشخصيات الدينيّة التي تصبح لدى الجيل من الأجيال أسطورة وهى النموذج الأمثل لمقاومة قوى الظلم وتمثّل الدعوة إلى الكفاح ومواجهة الألم والتّمرد، والقاسم يصور عصا موسى (عليه السلام) للفعل الثوري ويستهدف تغيير الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، ويعطيه القدسية والقدرة:

يدُكُم عصا موسى، على ضَرباتِها

تلجُ الشعوبُ صراطَها وتنالُ (القاسم، ١٩٧٩،ج٢: ٨٧)

ويعتبر الشاعر سميح القاسم نفسه من أحفاد أشعيا يشكوه من الجرائم التي يقترفها بنو إسرائيل الطغاة ضد العرب في الأرض المقدسة وأشعياء رمز للثورة والبطولة:

نَحْنُ أحفاد اشعياءَ

نُناديه

ننادي وَجْهَه السَّمِحَ الهلاميَّ

الَّذي يَرتَجُّ، مِن خَلْفِ الدُّموعِ القانية

... يا اشعياءُ الَّذي أغفى قُروناً وَقُرون!

كَيفَ صارَتْ هذه القَريَةُ ... صارَتْ زانيةً ؟!

زَغَلاً فِضَّتُها صارَتْ،

على أيدي الطُّغاةِ الأغبياءِ (القاسم، ١٩٨٧: ١٩٧و ١٩٨)

وكأنّ الشاعر يشير بهذا إلى أنّ الفلسطيني لم يعد يطيق الألم ولم يعد يحتمل الشكوى ولكن حنجرته تمتلىء بالصياح فى الإعلان عن ذاته، وتجاوز الواقع الراهن من خلال الكلمة الرافضة. (مجموعة من الكتّاب،١٩٩٩ :٣٠١)

المأساة والآلام

ينظر الشعراء إلى هذا المفهوم من الأبعاد المختلفة منها تحمّل الآلام من قبل المحتلين أو من الداء والمرض أو الموقف السياسى والاجتماعي متفاقم أمّا الألم من الاحتلال أوّل ما يخطر ببال الشاعر حول هذه الدلالة ويستلهم الشاعر قصة عيسى (عليه السلام) وما ألمّ به من الآلام على أيدي اليهود لتصوير مأساة الشعب الفلسطيني، فواقعه الفلسطيني المصلوب على أعواد مشانق الاحتلال شبيه بما تعرّض له هذا النبي في حياته وينشد سميح القاسم :

أَرْضُنا ... عَشِقْناها
وَلكِنّا انتَهَينا في هَوانا أشقياءَ
وَحَمَلنا كُلَّ آلامِ الصَّليبِ
يا أبانا، كَيفَ تَرْضي لِبَنيكَ البُسَطاءِ
دونَ ذَنبٍ كُلَّ آلامِ الصَّليبِ (القاسم، ۱۹۸۷: ۶۴و ۶۵)

إنّ الشاعر هنا يخاطب الله أباه كالمسيحيين ويربط بين معاناة المسيح ومعاناة الفلسطينيين على الأرض ذاتها ويستخدم القصص الديني، ويسقطه على واقع المجتمع لتعميق الدلالة على الأسى والألم الانساني، ويتخذ من هذه القصة، نموذجاً لتصوير مأساة نفسه إلى أن يقول:

و انهض يا يوسفُ
إنهضْ واشهد إخوتِک المحتفلين بموتِک
إنهض وإسمع
صرخةَ طفلٍ
شهقةَ مدفعٍ
إنهض يا يوسفُ (القاسم، ۱۹۸۱، ۳: ۵۵)

ويرسم الشاعر ما تعرض له في حياته من العسف والإهمال المتعمد من المحتلين، يقول:

مِنْ أينَ أتَيْتُم في هذا الليلِ؟
جِئنا مِنْ أرضِ الجوعِ
ماذا تَطلبُ أنفسكم؟
شيئاً مِن حنطةِ مولانا لِأخينا النائم
تَحتَ سَماءِ الموتِ

أينَ أخوكُم؟
في ذِمّةِ والدنا المقعد في ركُنِ البيتِ (القاسم، ١٩٨١، ٣: ٥٤)

التشرّد والنفى

إنّ أدب المنافي ليس حكراً على سميح القاسم أو بقية شعراء هذا العصر، فهو قديم فى التراث العربي بصورتيه: المنفى الروحي النفسي، والمنفى الحياتي الجسدي كما هما ماثل فى الأدب الفلسطيني واستلهم الشاعر من حياة الأنبياء اسماعيل وموسي ويوسف ويونس (عليهم السلام) ليعبّر عن رأيه للتشرّد والنفى واستوحى الشاعر قصة هاجر واسماعيل عندما بدأت تهرول ذهاباً وإياباً بحثاً عن الماء لتسدّ رمق وحيدها، فعثرت على الماء وكانت زمزم ويبيّن هكذا مفهوم المنفى والتشرّد في سربية "ثالث اكسيد الكربون" في مقطع سيرة بنيون:

صاحَ صيحته فارس الدم والياسمين
هاجر المتعبة
سَئِمتُ فى المنافي ولائمَها المرعبةَ
سَعمتُ غوثَ جبريلَ والمافيا...
وأضاقَتْ وِكالاتُ أنبائِنا...
أصبَحَتْ زمزمُ بئر نفطٍ...و"بنيون"غرثان ستكلب
إيه يا هاجرُ إنتظري
طائرُ الرعدِ والإخوةِ الباسلين
إيه، وانتظري طفلةً تَتقُنِ الموتَ والبعثَ
عنقاءُ من ديرِ ياسين، من عينِ جالوت، من ميلسون
طالما إنتَظَرتُ...طالما سئِمتُ الانتظار
وقُبَيلَ النهار
أسرجتُ حَضرها للفتى"اسماعيل"
ومضتْ فى الطريقِ الطويلِ...
إنّها فى الطريقِ إلى بيتِها
فى الطريقِ،...وما من دليلِ
غيرُ دمِ القتيلِ

صاح بنيون من مهدِه العسكري:

لن تعودَ!

هاجر إحترقتْ...مرّة...مرّتين!

ونعمنا الحدود!

صاح"بنيون" من مهدِه لن تعودَ!

واستعدّ الجنود... (القاسم،۱۹۹۱،ج۴: ۱۸۶ و۱۸۷)

فالسيدة هاجر هى رمز للفلسطين التي سئمت المنافي، وهاجر فلسطين التي احترقت، وزمزم دلالة على النفط العربي وبنيون رمز لصهيون والفتى اسماعيل رمز للفلسطيني العربي.

ويشير الشاعر إلى سنوات التيه في سيناء ويحضر مفهوم التشرّد والمنفى للفلسطينين حين قضى موسى (عليه السلام) رسالته حتى يغب عن بني إسرائيل أقل من أربعين يوماً ويذهب في السيناء لميقات ربّه وينسى قومه تعاليم الله ويضلهم الله فى السيناء أربعين السنة بعد عبادتهم للعجل ويشير الشاعر بهذا المنفى والتشرّد:

سَنَواتُ التّيهِ في سَيناءَ كانَتْ أربَعين

ثُمَّ عادَ الآخَرون

وَرَحَلْنا ... يَومَ عادَ الآخَرون

فإلى أينَ؟ ... وَحَتّامَ سَنبْقى تائِهين

وَسَنَبقى غُرَباء؟! (القاسم، ۱۹۸۷: ۵۱)

في هذه المقطوعة يقارن سميح بين اليهود والشعب الفلسطيني بين القديم والحاضر. إنّه يتحدث عن تشرُّد اليهود قبل إستقرارهم في فلسطين في العصر الراهن، وتشرُّد الشعب الفلسطيني بعد استقرارهم في وطنهم المحتلّ كما يقول الشاعر نفسه: «ومن مفارقات التاريخ أن الظالم آنذاك هو المظلوم في عصرنا وأن المظلوم آنذاك هو الظالم في عصرنا» (القاسم،۱۹۸۷: ۱۹۲) وكانت الضلالة فى السيناء أربعين السنة كتشرد الفلسطيني بعد احتلال وطنه.

ونشاهد التشرّد والنفى في حياة يوسف (عليه السلام) وكانت حياته مملوء بالأحداث والوقائع وذكرت قصته في ثلاثة سور القرآن وفيها آيات للسائلين. بعث الله يوسف رسولاً وظهرت عليه ظواهر النبوة فى الطفولة وإخوته حاسدوا وكادوا عليه ومن هذه المرحلة يبدأ التعب في حياة يوسف (عليه السلام)، وتمت آمال الطفولة عند أبيه لأنّهم يريدون أن يقتله أو يطرحه وأوقعوه فى الجب وبدأت محنة

يوسف من هذه المرحلة وتصبح الجب رمز المنفى أو المقاومة فى النفى ويتجلي مقاومة يوسف من جانب هذا البئر ولا يضعف ولا يوهن بل يقاوم؛ لأنّ الضعف لا يلائم مع روح النبوة. فتكررت في شعر القاسم كلمة «الجب» التي رمز بها المنفى أو الفلسطين المحاصرة، يقول:

حَرَموني طِفلاً حليبَ رِضاعي

ورَمَوْني في جُبِّهم واسْتَكانوا (القاسم، ١٩٨١،ج ٣: ١٩)

إتّخذ الشعراء المعاصرون في قصائد عديدة من بئر يوسف وسجنه رمزاً للظلم والظلام والتشرّد، أو للحرب الحصار والمجازر، وهى تعبّر عن الموت والدمار، يستلهم كل شاعر بالطريقة الخاصة ويعيد بعثها من جديد في حلّة مغايرة. (شقروش،٢٠١٠: ٤)

يستلهم الشاعر قصة يونس (عليه السلام) حين ابتلعه الحوت ليصوّر واقع الفلسطيني المتشرّد والمتخفى ويقول في قصيدة "ماذا حدث للمتنبّي حين دخل مقهى في شعب بوّان":

ويَشُقُّ عُبابَ القهوةِ حوتٌ هائلٌ

من أعماقِ الحوتِ يأتي مكتوماً صوتُ يونس

إليّ...إليّ، يا صاحِبي!

لا يَتردّدُ ولا يجري حِساباً

يلج بن الحوت

ويبقى فِنجان القهوةِ وحيداً

معلّقاً فى الفضاء! (القاسم،١٩٩١،ج ٢: ٥٣٧)

يعمّق سميح القاسم التراث بايراده مزيداً من القصص القرآنية ليعطي بعداً دلالياً على الواقع السياسي والاجتماعي، ويعطيه البعد الأسطوري لتبيين الوضع الراهن، والواقع المرير، ويستلهم قصة يونس حين ابتلعه الحوت، فيكون متأرجحاً بين الكشف والبوح، وبين التخفي والتجلّي، وما بين الغموض والوضوح فعندما يقدّم له المنادل قهوته يتوحّد معها، وفجأة يشقّ القهوة حوت هائل، يغزو قهوته، وتبقى القهوة مع فنجانها معلّقة ما بين الأرض والسماء، والقاسم في قصته يقلّب الحقائق لتكون الدلالة المغايرة، فحسب القرآن الكريم أوحى الله إلى الحوت ألا تأكل له لحماً، ولاتهشم له عظماً، وبطنک تكون له سجناً من خلال استحضار شخصية نبي الله يونس، الذي ابتلعه الحوت بمشيئة الله، لفترة من الزمن، ثم قذفه إلى اليابسة في قصيدة القاسم «كان يونس يتوجّع حيث كان

صوته مكتوماً، ليصوّر الواقع الفلسطيني المتمثّل بالصراع الدائم بين الحوت، وهو الاحتلال، ويونس المتمثّل بالفلسطيني المتخفّى، المتشرّد، المنفى».(زيدان،۲۰۰۱: ۲٤)

قدرة شعر القاسم واضحة في إزاحة الأسطورة والرمز عن معناها الأصلي وتقديمها في صورة جديدة موازية لما يحدث فى الحاضر وهو في هذا السياق يستلهم من هجرة الرسول من مكة الى المدينة، وهو لائذاً بغار الثور فيأخذه الشاعر رمزاً لهجرة أبناء فلسطين وتشرّدهم ويقول في قصيدة نشيد الأنبياء:

أحراء[1]! هل هجرتْ حمامتُكَ الوديعةُ؟

هل جَفَتك العنكبوت؟

أحراء

هلْ دهمت قريش أمان لائذك الكريم؟

فَراحَ تحتَ سَنابِكَ الكفّارِ

مَغدوراً يموت؟!

عادت«منّي» وأبولهب

عادَ...فما تَبَّتْ وتبّ! (القاسم، ۱۹۹۱،ج ۴: ۲۵)

يصوّر الشاعر الوقائع الاجتماعية والسياسية تصويراً عميقاً، فقريش في شعره يدلّ على المحتل وحرّاء هى ملجأ الفلسطيني المتشرّد الذي يلجأ اليه، الهجرة هى الأمان و المقاومة والنصر فخاطب الشاعر محمداً يستغيث به لما أصاب به من ألم الاحتلال والتشرد قائلاً:

فارْكبْ بَعيرَكَ يا محمّدُ

تَعال...لي فى الشمسِ معبدُ!! (القاسم،۱۹۸۷: ۳۲۲)

التمرّد وإنطفاء القيم الدينية

إنّ ظاهرة التّمرد تكون مسايرة مع أطوار تاريخ الأدب العربي وفى الشعر العربي الحديث يحضر على الصعيد الإجتماعي والوطني ويثور الشاعر على سنن شعبه وتقاليده ويتولّد لديه نوع من الإضطهاد ويدافع عن الحرية و«قد ظهر التمرّد فى البداية عند شعراء المقاومة على شكل الثورة من ثورات الشك والتمرّد وفهم بعض الشعراء منها الثورة على الدين ولكن بعد هذه المرحلة وصلوا إلى فكرة أنضج وأعمق وتجاوزوا ثورة الشك، وربطوا بين الدين وتغيير الحياة، بين الدين والكفاح من أجل المستقبل

[1] الصحيح أنّ اسمه غار ثور وليس غار حراء،انظر صحيح بخاري، كتاب المناقب، باب هجرة النبي (ص) وأصحابه إلى المدينة.

الإنساني».(النقاش، ١٩٧١: ٢١٦) واستحضر الشاعر الفلسطيني سميح القاسم شخصيات الأنبياء أيوب وموسى ومسيح (عليهم السلام) ليعبّرعن رأيه.

إنّ النبي أيوب (عليه السلام) من الشخصيات التي أخذت حظاً فريداً فى القرآن الكريم، إذ أشار الله تعالى إلى المصائب التي حلّت به، وإلى صراعه مع تلك المصائب وصبره على المحن أمّا الوجه التوراتي فنرى بشكل أكثر بروزاً لدى بعض الشعراء الذين استخدموا شخصية أيوب رمزاً للتمرّد على كل ظالم غير منصف، وللتعبير عن تمرّد الانسان الفلسطيني على القوى التي قدرت عليه المحنة، كما فعل سميح القاسم:

كلُّ الأخْبارِ تَقُولُ
أنا ما خاصَمْتُ اللهَ
فَلِماذا أَدَّبَني بِالوَجَعِ؟
حَسَناً...فَاسْمَعْني أنْفَخُ في الصُّورِ
يا لَعْنَةَ أيُّوبَ...ارْتفَعي
يا لَعْنَةَ أيُّوبَ...ثوري
وَاسْمَعْني أصْرَخُ، يا أيُّوبُ
لاتَخْضَعِ لِلوَجَعِ... لا تَجْعْ (القاسم، ١٩٨٧: ١٨٦)

الشاعر يشكو الله من المصيبة التي ألمّ بها الفلسطينيون، لأنه ليس بإمكانهم أن يصبروا على مرارة الصبر، ولايقبل الشاعر ما أصاب به لأنه ما خاصم الله ولايجد سبباً لابتلاءه واستحضر سميح القاسم شخصية موسى (عليه السلام) في قصيدته نشيد الأنبياء ملحمة إرم و«عبّر عن انطفاء القيم الدينية السماوية في وجدان الإنسان المعاصر»(عشري زايد، ٢٠٠٦: ٨٩) ويشعر بأنّها عاجز عن خلاصه من الآلام، وذلک حيث يقول خطابه موجهاً إلى موسى (عليه السلام):

حطّم وصاياک الشقيّة
واسجد معَ الكفّارِ للعِجلِ الغبي
فللسدى تعطو أمانيک الغبية
ألواحک الآجر تغرى النمل والديدان، والإبريز فى العجل المدلّل
يخطف الأبصار، يقذف بالعقول الدكن في دوّامة غضبى دجيّة! (القاسم،١٩٩١،ج ٤: ٢٣)

وهذا من الدلالات العميقة التي يوظّفها القاسم ويشير إلى قصة وصايا العشر ونزولها على موسى (عليه السلام) في طور سيناء، فوجد شعبه قد صنع عجلاً من ذهب نسائهم، وهم في حالة السجود والركوع والعبادة، فنسوا ربّهم ونسوا كليم الله وجاء فى التوراة قال الرّب لموسى: «اذهب انزل،لأنّه قد فسد شعبك الذي أصعدته من أرض مصر، زاغوا سريعاً عن الطريق الذي أوصيتهم به، صنعوا لهم عجلاً مسبوكاً وسجدوا له وذبحوا له وقالوا هذه آلهتك يا اسرائيل (توراة:خروج ۳۲،ص۱٤) والشاعر خلاف ما جاء فى التوراة يطلب من الشاعر أن يسجد مع الكفّار للعجل وأن يحطم وصاياه التي نعتها بالشقية.

نهاية الاحتلال وتحرير الوطن

يستخدم الشاعر قصة يوسف (عليه السلام) وما تحمل هذه القصة ليحضره في واقع الأيام ويرسم صورة معاناة الشعب الفلسطيني والفراق والتشرّد وفى النهاية يعود الفلسطينيون إلى الوطن كما عاد يوسف إلى حضن أبيه ويشير الشاعر إلى وعد الله ويطمئن إنّ شباب الوطن ينتصرون فى النهاية و«من زاوية أخرى يرمز قصة يوسف ويعقوب (عليهما السلام) بأمل الشاعر بتحرير الوطن من أيدي العدو المتلوثة بدماء الشهداء الفلسطينيين كما قرّت عينا النّبى يعقوب (ع) بزيارة ابنه يوسف بعد تحمّل آلام فراقه في عهد بعيد».

أحبائي! أحبائي!
اذا حنَّت عليّ الريحِ
وقالت مرة: ماذا يريد سميحُ؟
وشائت أن تزودَكم بأنبائي ..
فمرّوا لي بخيمهِ شيخِنا يعقوب
وقولوا : إنّني من بعد لَثم يديِ عن بُعدٍ
أبشّره.....أبشّره....
بعودةِ يوسفِ المحبوبِ !
فإنّ الله و الإنسان....
فى الدنيا على وعدٍ! (القاسم، ۱۹۸۷: ٥۹٤)

وفي قصيدة «أبطال الراية» يجعل الشاعر نفسه مكان موسى (ع)، وهو نبي بني إسرائيل كان يحلم بالدخول إلى الأرض المقدسة:

آنَست ناراً ضَوَّأَتْ سَيناءَ ! ثُمَّ سَمِعْتُ
قُل ... ماذا سَمِعْتَ؟ سَمِعْتُ صَوتَ اللهِ
يا موسى ... فَبَشِّرْ في البَرِيَّه! (القاسم،١٩٨٧: ٣١٩)

إنّ القاسم يتأكد أنّه سينتهي تشرده وتيهه ويدخل الأرض المقدسة في القريب العاجل إذ إنّ الله بشّره به ولا خلف لوعد الله.

يشير الشاعر إلى قصة النبي يوشع حين هجم على أريحا ويوشع بن نون كان من أنبياء بني اسرائيل والقائد وراء موسى (عليه السلام) وكان وصيّه وفتح مدينة اريحا وسكن بني اسرائيل فيها ونظم امور قومه واجتاز الأردن، لكنّه لم يدخل أرض كنعان، أرض فلسطين ودخل أريحا وأوقفت الشمس بإذن الله وهكذا غلب بني اسرائيل على الأعداء ولكن يغيّر القاسم صورة هذا النبي ويتمثل الاحتلال اليهودي الذي دخل أريحا ثم دخل إلى كل أشبار الأرض وغصب وطنه وقصد الشاعر الإسرائيليين:

يا يوشع بن نون
إسمع
يايوشع
أوقفت الشمسُ على أسوارِ أريحا؟
أرضيتَ الرّب القاتل؟ لا نعلم
لكنّا نعلم إنّ الشمسَ تَسيرُ
نعلم أنّ الشمسَ تسير على أعناقِ الشهداءِ
من بحرِ البقرِ إلى حطينِ
نعلم أنّ الشمس تسيرُ على أعناقِ الشهداءِ...(القاسم،١٩٩١، ج٢: ٣٦٤)

ويستخدم الشاعر لفظ يهوشع و«هو اللفظ الآخر من يوشع بن النون القائد العسكري اليهودي الذي عبّر الأردن من تيه السيناء، واحتلّ اريحا وحرقها ويثير الشاعر إنتباه المتلقي إلى أنّ الإحتلال مهما تشبّث بالأرض، واستوقف الشمس، واستمهل الغروب، فإنّ مصيره سيكون كمصير يهوشع الذي لن يؤوب ثم إنّ الإحتلال يتشبّث بالمستحيل ليثبت نفسه في فلسطين، ولكن هذا له مهما يطول الزمن، فالغروب سيخيم عليهم، وسينتهي أمرهم». (بزراوي،٢٠٠٨: ٢٠٩)

يهوشع مات// فلا تستوقفوا الشمسَ ولا تستهملوا الغروبَ
سورُ أريحا شامخٌ في وجهِكم إلى الأبدِ//يا ويلَكم! يا ويلَكم!

سرعان ما تغوص في أعماقِكم

أظافر الغروب يهوشع راح ... ولن يؤوب// يهوشع مات!! (القاسم ،۱۹۹۱: ۷۰و۷۱)

إنّ الشعر العربي يقوم على أساس الموازنة بين اللفظ والمعنى، ولكن في الشعر المعاصر نرى أنّ المعنى تفوق على اللفظ والشاعر يتبع المعنى واللفظ لا يرافقه في هذا الدرب. كما نرى مثل هذا فى أشعار سميح القاسم حيث يلوذ الشاعر إلى استخدام الرموز الشعرية التي تحتوي المعاني والأغراض الملفوفة والغامضة تحتاج إلى التأمل والتدبّر فيها.

النتائج

أهم النتائج التي توصل إليه البحث هي: شخصيات الأنبياء (عليهم السلام) هى أكثر شخصيات التراث الديني شيوعاً في شعرنا المعاصر واستحضر الشاعر شخصياتهم في قصائده وقصد الكشف عن حقائق ووقائع طالما استترت برداء الزائف فرأى الشاعر تعريتها وكشف وجهها الحقيقي بطريقة تلميحية رمزية بعيداً عن المباشرة. إنّ شعراء العرب، لاسيّما شعراء فلسطين، استعملوا رموزاً تتعلّق بتاريخ اليهود ومنها أنبياء اليهود، ليبيّنوا بعدها عربياً. ويهدف الشاعر الفلسطيني من استخدام الأساطير والرموز الدينية إثبات أصالته وأصالة شعبه رغم إحتلال أرضه المقدسة من قبل العدو الصهيوني والأديب الفلسطيني يستدعى شخصيات الأنبياء من الديانات الثلاث لأنّه يعتبر وطنه المحتل مهد الأديان السماوية.

المصادر والمراجع

إبن جعفر، قدامة. (۱۹۳۴). *نقد الشعر*. بيروت: دارالكتب العلمية.

إبن منظور، محمد بن مكرم. (۱۴۱۴ق). *لسان العرب*. بيروت: دار صادر.

بزراوي، باسل محمّد علي. (۲۰۰۸م).*سميح القاسم دراسة نقدية في قصائده المحذوفة*. رسالة الجامعية إشراف الأستاذ الدكتور عادل الأسطة. جامعة النجاح الوطنية.

پورنامداريان، تقي. (۱۳۶۴ش). *رمز وداستانهای رمزی در ادبیات فارسی*. شركت انتشارات علمی فرهنگی.

الجيوسي،سلمى الخضراء. (۲۰۰۷م). *الإتجاهات والحركات فى الشعر العربي الحديث*. ترجمة الدكتور عبد الواحد لؤلؤة. بيروت: مركز الدراسات الوحدة العربية

رستم پور، رقیه. (۱۳۸۴ش). *التّناص القرآني في شعر محمود درويش*. مجلة الجمعية العلمية الإيرانية للغة العربية وآدابها. العدد۳. صص۱۵.۳۳.

زيدان، رقيه. (۲۰۰۱م_۱۴۲۱ق). *التغير الدلالي في شعر سميح القاسم*. رسالة الجامعية باشراف الاستاذ الدكتور يحيى جبر. جامعة النجاح الوطنية.

عشري زايد، على. (۱۹۷۸م). *استدعاء الشخصيات التراثية فى الشعر العربي المعاصر*. طرابلس: الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان.

فيروز آبادي، مجد الدين. (۱۹۸۷م). *قاموس المحيط*. دمشق.

القاسم، سميح. (۱۹۸۷). *ديوان*. بيروت: دارالعودة.

القاسم، سميح. (۱۹۹۱م). *المجموعة الكاملة*. كفرقارع: دار الهدى. الطبعة الأولى.

القاسم، سميح. (۱۹۹۱م). *أغانى الدروب*. كفرقارع. بيروت: دار العودة.

القاسم، سميح. (۱۹۹۴م). *الكتب السبعة*. بيروت: دار الجديد.

القاسم، سميح. (۱۹۷۸م). *الحماسة*. المجلد الأول. عكا: منشورات مكتب الأسوار.

القاسم، سميح. (۱۹۷۹م). *الحماسة*. المجلدالثاني. عكا: منشورات مكتب الأسوار.

القاسم، سميح. (۱۹۸۱م). *الحماسة*. المجلد الثالث. عكا: منشورات مكتب الأسوار.

كنفاني، غسّان. (۱۹۸۷م). *الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال*. بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية.

المتوكل، طه وآخرون. (۱۹۹۹م). *حوار مع سميح القاسم (المتنبي واحد من عائلة الشعراء)*. فلسطين: المركز الثقافي الفلسطيني.

مجموعة من الكتاب. (۱۹۹۹م). *المختلف الحقيقي*. الأردن: دار الشروق. الطبعة الأولى.

النقاش، رجاء. (۱۹۷۱م). *محمود درويش شاعر الأرض المحتلة*. دارالهلال. الطبعة الثانية.

شقروش، شادية. (۲۰۱۰م).مقالة: «محمود درويش مصلوب في رحم القضية».

عبداللطيف، حجاب. (د.ت). مقالة «*تقنية توظيف التّراث الديني في شعر مفدي زكريا*». جامعة المسيلة.

الموقع الأنترنتي:

http://www.univ-msila.dz/fr/multimedia/upload/file/EPA/8.pdf
http://daifi.montadarabi.com/t1849-topic